الفصل الثالث

أشعاره

١ ــ الإلياذه

ذات يوم اختلفت هيرا (Hera) وأثينا (Athena) وافروديتا (Aphrodité) على تفاحة قدمتها لهن إريس (Iris) إلاهة الخصام ، ولما اشتد بينهن الخلاف اتفقن على اختيار باريس بن بريامووس حكما لفض النزاع بينهن وسألنه أن يعطى التفاحة لأكثرهن جمالا وأشدهن فتنة . وأخذت كل منهن تستميله وتغريه فقالت له هيرا « أنا سيدة الأولومپوس صاحبة القوة والسلطان ، أنا أم آريس ، إله الحرب ، وهيفايستوس ، صانع الدروع ، فإذا شئت طلبت إليهما أن يحمياك وجعلتك ملك هذه الديار ، صاحب عرش عظيم وثروة طائلة » . وسكتت هيرا ، ثم تحدثت أثينا ، ابنة زيوس العظيم ، ربة الحكمة والرشاد ، وقالت « سأمنحك السداد واجعلك أحكم الخلق أجمعين » . وتقدمت افروديتا بابتسامتها الساحرة التى لا تفارق فمها الحلو الرقيق وقالت « أو لست أنا ربة الجمال ؟ اولا تريد ياپاريس أن أهبك هلينا (Helene) أجمل زوجة فى العالم تسحرك بحسن إلهى وتغمرك بجمال ربانى ؟ » . وقبل أن تنتهى من كلامها ألقى إليها التفاحة وبذلك أثار غضب هيرا وأثينا وكتب على نفسه البؤس والشقاء وجلب على أهله الخراب والدمار .

فبعد أن اصدر حكمه ارادت افروديتا أن تفي له بوعدها ، فأغرته بالابحار إلى مدينة اسبرطه حيث تنتظره هلينا زوجة مينلاوس Menelaos ملك البلاد ، واقلع باريس إلى هذه الديار ونزل ضيفاً على ملكها وقضى فى ضيافته أياماً جميلة تمتع فيها بنظرات كان يختلسها من حبيبته الموعودة وابتسامات كانت تبادله إياها وتغريه على الاقتراب منها ليرشف الخمر التى تتدفق من عينها فيتشجع وينفذ خطته ، ولما اسكرت باريس نشوة الحب واستسلم لإغراء افروديتا الساحرة فر مع هلينا إلى طرواده لينعما بحياة سعيدة بعيدين عن اسبرطه وملكها وذاعت أخبار الفضيحة وصمم مينلاوس على الانتقام ، ودعا ملوك اليونان وأمراءها إلى الرحيل لتدمير طرواده وسرعان ما عجت البلاد بالجند واضطربت البحار بالسفن واتفقت الكلمة على أن يبحر زعماء هيلاس (Hellas) وأبطالها ليدمروا طرواده ويذيقوا أهلها صنوف العذاب .

وانتظمت صنوف الجند ، وأعدت السفن وتأهب الحشد للرحيل تحت إمرة اجاممنون العظيم ، وترامت أخبار هذا الجيش الجرار إلى طرواده فهب شعبها الباسل وأخذ يستعد لمواجهة العدو وامتلأت المدينة بالجند وتسابق الشبان والشيوخ فى جمع الأسلحة ودقت الطبول ، ووصل الجيش اليونانى وتأهب الطرواديون لحماية بلدهم والدفاع عنها ، وضربوا حولها حصاراً منيعا والتحم الفريقان وتوالت المعارك وكانت خسائر الغالب والمغلوب فادحة . وملأ الفزع صفوف اليونان والطرواديين وفاض الحزن على هؤلاء وهؤلاء وجزعت النفوس لرؤية الدماء المنسالة والرءوس المتناثرة وطال الحصار واستمر عشر سنوات مليئة بالأهوال والخطوب .

لكن هوميروس لم يشأ أن يصف لنا هذه الأعوام وما جرى فيها

واكتفى بأن يتغنى بأحداث الشهرين الأخيرين ، فنظم الإلياذه : ملحمة الخلود وقصيدة الزمان ، وتتكون من خمسة عشر ألفا وخمسمائة وسبعة وثلاثين بيتاً قسمها علماء الإسكندرية إلى أربع وعشرين أنشودة ، بدأها هوميروس بالدعاء لربات الشعر والتوسل بهن ليلهمنه الشدو والغناء ثم أخذ فى سرد قصته وقال ...

فى يوم من الأيام هاجم اليونان إحدى القرى وسبوا نساءها وكانت من بينهن خروسيس الفاتنة ، ابنة كاهن اپوللون ، فأعجب بها اجاممنون وأخذها من نصيبه ، فحزن أبوها حزناً شديداً وفكر فى أن يذهب إلى ملك الملوك ليفتديها ، ولما بلغ معسكر اليونان تقدم من اجاممنون خائفاً محزونا وتوسل به قائلا : « مولاى ! جئتك راجيا أن ترد على ابنتى ، مليكى ! انى أدعو لك بالنصر وأصلى من أجلك وأقدم لك ما أملك فداء لفلذة كبدى فارحمنى وردها إلىّ » ، لكن اجاممنون نهره ورده خائب الرجاء فعاد إلى قريته يسكب الدمع مدراراً ويبكى ابنته ويدعو اپوللون أن ينتقم له من هذا العاتى المتجبر واستجاب الرب لدعائه ، فأمطر اليونان وابلا من غضبه وأنزل عليهم طاعونا يجتاح جنودهم وخيلهم واستمر الوباء تسعة أيام عاصفة تنذر بالفناء ، فاضطر اخيليوس إلى دعوة مجلس الجيش ، فأجمع القادة على أن يذهب كالخاس ويسأل الأرباب لتكشف له أسباب هذه الغمة ، وعاد الكاهن وقال : « الويل لنا ان لم نرد خروسيس لأبيها ، إن الآلهة تأمر بإرسالها فوراً ارضاء لاپوللون فيجب علينا أن نبتهل إليه ونسترضيه ليرفع مقته وغضبه عنا » . وعندئذ انتفض اخيليوس وأرسل كلمة الحق مدوية وأصر على إرجاع الفتاة لأبيها وتقديم القرابين لأپوللون ، فثار اجاممنون فى وجه البطل العظيم ونشبت بينهما معركة كلامية وهمّ اخيليوس بأن يغمد سيفه فى صدر

اجاممنون الذى وافق على رد خروسيس إذا تنازل له اخيليوس عن فتاته برسيس ، وعندئذ هبطت أثينا من السماء وتجلت لبطل اليونان ونصحته بأن يتخلى عن حبيبته لذلك القائد الأنانى الجشع ، فاستجاب اخيليوس لنصيحة الإلاهة وأقسم فى نفس الوقت بأنه لن يشترك فى الحرب ولن يسمح لجنوده البواسل بخوض معاركها ، وجلس اخيليوس فى خيمته حزينا كئيباً ونادى أمه ثيتس (Thetis) لتأتى وتسمع شكواه فأسرعت إليه وحدثها عن الإهانة التى لحقته . ثم خفت لمقابلة زيوس وأبلغته الخبر فوعدها رب السموات والأرض بأنه سيذيق اجاممنون وجنوده عذابا أليما تكفيراً عما أصاب ولدها من شرواذى .

ويحدثنا الشاعر فى الأنشودة الثانية بأن كبير الآلهة أرسل إلى اجاممنون ، وهو يغط فى نومه إله الأحلام ليحضه على مهاجمة طروادة فوراً ويبشره بالنصر المبين ، فلما استيقظ ابن أتريوس تحدث إلى القادة وأخبرهم برؤياه الكاذبة فصدقوها ، ثم وقف فيهم نستور خطيباً وقال : هلموا يا إخوان ، أجمعوا الجند واملئوهم حماسة واشحذوا عزائمهم واستعدوا لتدمير طروادة ، ولكن اجاممنون أراد أن يعرف ، قبل بدء المعركة ، رأى جنوده ، فنهض فوق هضبة وهتف فيهم قائلا : هلموا فاغمدوا سيوفكم ، لقد طالت بنا الحرب وذهبت بأعز المهج واغلى الضحايا ، فلنعقد مع الطروادين هدنة . أية حرب هذه التى نخوضها من أجل إمرأة خائنة لا عرض لها ولا شرف !! فلتنته هذه الحرب ولنعد إلى ديارنا . ولما انتهى من إلقاء كلمته طار الجنود فرحاً وعلا هتافهم يعلنون تأييدهم ويؤكدون رغبتهم فى الرحيل بعد الغياب الذى انهك قواهم وافنى شبابهم .

ولكن كيف تقف المعارك والآلهة لاتريد ذلك ؟ فسرعان ماهبطت أثينا من السماء وتجلت أمام أودوسيوس وقالت له : « إياك أن تنخدع بكلام اجا ممنون . انه يريد أن يسبر عزائمكم ، فهيا ياشجاع وانفخ من روحك فى قلوب الجنـــد وردهم إلى صوابهم واقنعهم بالبقاء » ، وعندئذ انطلق ملك ايثاكا بين القادة والجنود وأفهمهم الحيلة التى لجأ اليها ابن اتريوس وحضهم على القتال وحثهم على التضحية وذكرهم بمجد الوطن ، ونجح أودوسيوس فى تحقيق رغبة اثينا . فاستمرت الحرب .

ولكن القتال لايبدأ فى الحال بل نرى باريس فى الأنشودة الثالثة يتحدى اليونان فيقبل منيلاوس تحديه ويتفق الفريقان على شروط يتعهدان بتنفيذها بعد المبارزة ، وتقضى باسترداد هلينا وأخذ تعويض إذا انتصر ملك اسپرطه أو عودة الأغريق إلى بلادهم إذا فاز أمير طروادة . وبينما تدور المفاوضات بين الفريقين بخصوص هذه الاتفاقية ، تصعد هلينا فى الأنشودة الرابعة فوق أسوار طروادة حيث يستقبلها پرياموس وشيوخ المدينة ، فتقف بينهم وتحدثهم عن زعماء اليونان الذين تستطيع التعرف عليهم من فوق السور ، ثم تبدأ المبارزة ويتذكر منيلاوس أن هذا الغادر قد اعتدى على عرضه ، فتنتابه ثورة جنونية وتتقد عيناه ويتدفق الدم فى وجهه وينقض على باريس ويكاد يفتك به لولا أن افروديتا نشرت حوله سحابة بيضاء احاطت به وأخفته عن منيلاوس الذى طفق يبحث عنه فى كل مكان ولكن دون جدوى ، لقد رفعته افروديتا إلى عل وذهبت به إلى حبيبته هلينا .

وهنا ينقلنا الشاعر فجأة إلى ذرى الأولومپوس حيث نرى هيرا وأثينا تعملان على خرق الهدنة وبدء القتال من جديد ، واتفقت الإلهتان على ان تذهب

اثينا وترسل سهما نافذاً فى جسم منيلاوس وهو يبحث عن باريس وكان هذا السهم كافياً لاشعال نار الحرب التى يطيل هوميروس فى وصفها ويتغنى بأحداثها فى الجزء الأخير من الأنشودة الرابعة والأناشيد الخامسة والسادسة والسابعة والثامنة «وكيف لايسهب فى وصفها وقد اشترك فيها الآلهـــة وانقسموا إلى فريقين ؟ فابوللون وآريس يمطران اليونان وابلا من السهام ويوقعان الرعب فى قلوبهم ، وزيوس يرسل عليهم الصواعق ، اما هيرا وأثينا فقد حزنتا لهذا الموقف وأخذتا تفكران فى أمر اليونان فاتفقتا على استدعاء بوسيدون الجبار لينقذهم من هلاك محقق ، ثم ذهبت هيرا إلى زوجها وأسكرته بقبلاتها ثم سلطت عليه إله النوم فأغرقه فى سبات عميق ، وكف زيوس عن إرسال صواعقه على الاغريق ، وبذا نجحت الرتبان وانقذتا جموع اليونان فتعادلت الكفتان بعد أن كانت كفة الطرواديين هى الراجحة ، وثاب اليونان إلى رشدهم وأدركوا أنه لوكان أخيليوس بينهم لما غلبوا على أمرهم . ولذا أوصى نستور بمصالحة البطل وطلب إلى أجاممنون استرضائه ، واستجاب القائد العام لطلبه وأرسله مع أودوسيوس وأجاكس وفوينكس إلى خيمة أخيليوس ليعرضوا عليه صلحا كريما ويسألوه الصفح والغفران ، ولكنه يثور لكرامته ويرفض اعتذارهم ويردهم خائبين ، بعدئذ يعود الشاعر مرة أخرى إلى ساحة الوغى ليصف لنا فى الأناشيد الستة التالية معارك عنيفة ومذابح مخيفة .

لقد تأهب الفريقان وبدا لهما أن يخوضا المعركة الفاصلة فى هذه الحرب الضروس ، فاشترك فيها أجاممنون العظيم وأجاكس المرعب وأودوسيوس الشجاع وديوميديس الباسل . واشترك فيها هكتور أسد طرواده المهصور الذى كان يزلزل الساحة بزئيره ويملأ الجندقوة وحماسة فيسرعون إلى أسلحتهم

ودروعهم ويقتلون الأغريق بالعشرات والمئات ، ويحرزون نصرا خاطفاً ويختالون حين يشاهدون قادة اليونان يحملون إلى سفنهم بعد أن أصيبوا باصابات قاتلة بالغة ، ويرى باتروكلوس هذه المناظر المؤلمة ويحزن حزناً اليما ويحاول اقناع صديقه أخيليوس بأن يغفر لأجاممنون اساءته وينهض ليدفع عن اليونان البلاء الذى نزل بهم ، ولكن أخيليوس لا يستجيب لنداء صديقه فيكتفى بأن يسمح له بأخذ مايريد من قوة وعتاد، فيذهب باتروكلوس فى الأنشودة السادسة عشرة لتخليص الأغريق من الموت الذى يلاحقهم ، وينفخ فى البوق وأنقض باتروكلوس بجنده على الأعداء وكانت خوذة أخيليوس التى لبسها تكفى وحدها لإلقاء الرعب فى قلوب الطرواديين وتدفعهم إلى الفرار ، فاضطرب نظامهم وسقط منهم عددغفير، عندئذ اختال باتروكلوس بانتصاره وأصر على ملاقاة هكتور فسعى اليه ، ولم يترك كل منهما فرصة تمضى إلا وحاول الفتك بغريمه ، ثم أرسل هكتور رمحا قاتلا إلى رأس باتركلوس فسقط المسكين مدرجا بدمه وقبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة تنبأ بقتل هكتور وقال له « سوف تشرب الكأس التى شربت ، انتظر فسيأتيك عذاب أليم والويل لك من أخيليوس ، فعندما يسمع بموتى سيسرع إلى هذه الساحة ولن يتركها قبل أن يصرعك ،

وسمع اخيليوس بالخبر وحزن له حزنا بالغا وأخذ يرسل صرخات مدويه كانت تزلزل قلوب الطرواديين وتملؤهم ذعراً ، وطفق يجوب الساحة بحثا عن جثة حبيبه ، فلما وقع عليها بصره بكى ماشاءله البكاء ، ثم رثى صديقه بكلمة مؤثرة وامر بغسل الجثة ولفها فى الأكفان ، ثم نسى غضبه وسعى إلى أجاممنون فرحب به واعتذر له ورد اليه الفتاة التى كانت سبب الخصام ، وقدم له الهدايا النفيسيه رمزاً لنقاء القلب وصفاء

النفس ، نسى اخيليوس كل شيء وأصبح لا يفكر إلا فى الانتقام لصاحبه ، ويصف لنا الشاعر فى الأناشيد الباقيه كيف انتفض أخيليوس وانقض يشفى غيظه بقتل عشرات وعشرات من ابطال طرواده ، وكيف كان يجوب الساحه يطعن ويجندل ويضرب ويقتل ، وكيف ابتلعه اليم فكاد يغرق ولم ينقذه من الموت إلا ارباب الأولومپوس . وكيف استخف بالأهوال والأخطار واقسم ان يفجع طروادة فى هكتور ، بطلها المغوار ، فانطلق فى ساحة القتال يبحث عنه حتى التقى به ، وما أن رآه ابن پرياموس حتى زاغ بصره واضطربت مفاصلة وهزته قشعريرة عصفت ببنيانه الضخم ، وحاول ان يلهب جياده لتفر من وجه اخيليوس ولكن إلى اين ؟ لقد انطلق ابن پليوس يطارده اينما ولى وجهه ، ولما تعب هكتور ونال منه الجهد وقف لقاء اخيليوس . وكانت لحظة رهيبة انفطرت لها القلوب وارتجف لها الآلهه والبشر . لقد انقلب بطل هيلاس إلى ثائر ملأه الغيظ واستولت عليه رغبة مستبدة فى الانتقام ، أما هكتور فلم يكن مخيراً بين الصمود وبين الهرب ، فصيرهَ أصبح معلقا فى كفة القدر . واخذ كل من البطلين يقذف رمحه القاتل فيرتد على درع خصمه ويهوى إلى الأرض فيسرع صاحبه لأخذه ويرسله من جديد . ولم تنقض لحظات قصيرة حتى انقض ابن پليوس على بطل طرواده وعاجله بطعنه فى رمحه نفذت فى عنقه وهوت به إلى الأرض ذبيحا ميتا ، وربطه فى مؤخر عربته وطفق يدور حول المدينة ينكل بجثته ويعفر جبينه بتراب الذل والاحتقار .

وبعد أن انتقم اخيليوس لصاحبه جمع القوم وأمرهم باعداد كومة لحرقه وتأدية الشعائر الدينية التى يفرضها إله الآخرة على موتاه ، ولما انتهوا من تأدية الطقوس واقامه الألعاب التى كان لا يتم الجناز الا بها ، عاد اخيليوس

إلى جثة هكتور وانقض عليها كالمجنون وربطها فى عربته وأخذ يلف بها حول الكومة التى حرق فيها صاحبه فثار الآلهة لما يحل بالميت المسكين من هوان، وغضب زيوس، فأرسل إلى اخيليوس يأمره بتسليم الجثة إلى پرياموس، واوحى إلى الشيخ المسكلوم بالذهاب إلى معسكر اليونان لأخذ جثة ابنه العزيز، واستجاب اخيليوس لرغبة زيوس واطاع پرياموس أمره، فسعى إلى خيمة البطل ودخلها وهو يبكى ويبتحب فرحب به اخيليوس وهون عليه ثم أمر بغسل هكتور ولفه فى اكفان من كتان مصر وتسليمه إلى ابيه ثم يعود پرياموس إلى طرواده ويأمر بعمل كومة لحرق الجثه ويقيم الطقوس الدينيه وسط نحيب الطرواديات وعويلهن وتنتهى الإلياذه بوصف بليغ لهذا المنظر الحزين

٢ – الاوديسا

قسمها علماء الاسكندريه ، مثل الإلياذه ، إلى اربع وعشرين انشوده تدور حول ثلاثة موضوعات رئيسيه :

أعمال تليماخوس ، وتتضمن الأناشيد الأربعة الأولى وسميت باسمه لانه يقوم فيها بالدور الرئيسى ، « مغامرات اودوسيوس » ويصفها الشاعر فى الأناشيد السبع التالية ، « انتقام البطل » ويملأ الاغانى الباقية ، ويتكلم فيها هوميروس عن عودة أودوسيوس إلى وطنه وتخلصه من اعدائه الادعياء ، الذين احتلوا قصره وارادوا ارغام زوجته على الزواج بواحد منهم .

ويبدأ هوميروس الأوديسا ، كما بدأ الالياذة ، بالابتهال إلى ربات الشعر أن تلهمنه أجمل الأناشيد وأعذب الأنغام ، ثم يصف لنا كيف ضل أودوسيوس طريقه فى عرض البحار ، وكيف عاد أقرانه ، بعد حرب طرواده ، إلى اوطانهم إلا هو وجنوده فقد تعرضوا للمصائب والأهوال ، وكيف رقت قلوب الآلهة للبطل ومن معه ، وكيف أن اثينا رثت لحاله وتوسلت بأبيها زيوس أن يدركه برحمته ويرده آمنا إلى وطنه ، وكيف أن أباها استجاب لها وقضى بأن يعود أودوسيوس إلى ايثاكا ، مسقط رأسه ، بعدئذ ينقلنا الشاعر إلى هذه الجزيرة حيث نرى جماعة الأدعياء وقد استولوا على قصره وأخذوا يبددون ثروته ويضايقون أبنه الصغير تليماخوس وزوجته الوفية بنيلوبا (Penelope) التى حافظت على طهرها وأخلاصها طوال هذه السنين[1] . ثم نرى أثينا تهبط من السماء وتأخذ صورة « منتس » أحد اصدقاء

---

(١) لقد صارت بنيلوبا رمزاً للوفاء عند اليونان لأنها انتظرت زوجها عشرين عاماً قضى منها عشرة فى حصار طرواده ، وضرب فى عرض البحر عشرة أخرى ، ومع ذلك فالأوديسا ، مثل الإلياذة ، لاتصف إلا حوادث الشهرين الأخيرين فقط .

أودوسيوس وتدخل القصر وتقترب من تليماخوس وتنصحه بالذهاب إلى بولوس واسپرطه ليعرف من نستور ومنيلاوس أخبار أبيه .

وفى الأنشودة الثانية تعد له سفينة وتختار لها الملاحين وتزودها بالسلاح وتبدو فى صورة منتور وترافق تليماخوس فى رحلته ، وأقلعت السفينة فى الأنشودة الثالثة واتجهت صوب پولوس ، ولما وصلتها ألقت مراسيها ونزل تليماخوس ونزلت وراءه أثينا ، وتصادف أن أهل المدينة كانوا مجتمعين على الشاطىء حول ملكهم يقدمون القرابين لپوسيدون ، واقترب تليماخوس واثينا من القوم ، فرحب بهما نستور واستقبلهما استقبالا كريما ، ثم طلب اليه تليماخوس أن يحدثه عن أبيه ويذكر له بعض مايعرفه عما ألم به أو يقص عليه ماعسى أن يكون قد سمعه ، ولكن الملك يروى له أخبار كثير من أبطال اليونان الذين عادوا إلى بلادهم بعد حرب طرواده ويأسف لأنه لا يعرف من أمر أبيه شيئا وينصحه بأن يذهب من فوره الى مينلاوس . ملك اسپرطه لأنه كان قد لقى الأهوال فى البحر ولاريب أنه سمع كثيراً من الأخبار أثناء رحلته الشاقة فواصل تليماخوس رحلته إلى اسپرطه . وفى الأنشودة الرابعة نراه فى قصر مينلاوس الذى يرحب به ويكرم وفادته ، ويخبره ان سفائن ابيه قد تحطمت وانه حل ضيفا على عروس الماء كالوپسو Kalupso فهامت به وأبقته بجانبها وما زال أسيراً فى جزيرتها لا تسمح له بالرحيل وبعدئذ يفكر تليماخوس فى العودة إلى ايثاكا ، ولكن الشاعر ينقلنا إليها فجأة قبل رجوع الفتى ليرينا العشاق يتآمرون عليه ويدبرون قتله ، وتعلم پنيلوپا بمكيدتهم فتصلى من أجل ولدها وتتوسل بأثينا أن تصونه وأن تنتقم من الأدعياء الظالمين ، وعندما تنام الأم الحزينة تقبل عليها الآلهة تواسيها وتطمئنها بهذه الكلمات الجميـــلة « لاعليك أيتها العزيزة ولا على ابنك »

فالسماء ترعاه وسيعود إليك عما قريب ، إنه لم يغضب الآلهة ولذا فهى تحميه وترعاه ، فقرى عينا واطمئنى عليه » .

ثم يروى لنا الشاعر فى الأنشودة الخامسة كيف وقفت اثينا فى مجلس الآلهـــة تصف آلام أودوسيوس وتصور ألوان العذاب التى يذوقها فى جزيرة كالوپسو الموحشة ، فيعدها سيد الأرباب بأنه سيعود إلى بلده سالما آمنا وانه سيبطش بكل أعدائه ، ثم يأمر زيوس ولده هرميس بأن يتوجه فى الحال إلى هذه الحورية ويطلب إليها أن تطلق سراح أودوسيوس ليعود إلى وطنه ويستعيد سلطانه ويلقى أهله وخلانه . وتطيع الحورية أمر سيد الاولومپوس وتطلب إلى البطل أن يصنع لنفسه زورقا يحمله فوق العباب المتلاطم ثم تزوده بكل ما يكفيه من طعام وشراب . ولما أتم صنع زورقه أنزله إلى البحر وودع عروس الماء الحزينة وكان أودوسيوس سعيداً باسترداد حريته مبتهجاً لقرب أوبته ، وظل الفلك يجرى به وكاد يبلغ جزيرة الفياكيس (Phaiakes) الذين أمرهم زيوس بأن يزودوه ، عنـد وصوله إليهم ، بسفينة وزاد وكل ما تشتهى نفسه . ولـكن وا أسفاه ! لقـد لمحه پوسيدون وهو يقترب من شاطىء جزيرتهم ، فأخذ يهز أعماق البحر فهاج وتلاطم بأمواج كالطود ، حطمت الزورق وأخذت تقذف به فى كل صوب وظل البطل فى كفاح مستمر ونضال مرير يناضل الموت ويصرعه حتى وصل الشاطىء واستسلم لنوم هادىء عميق .

وتظهر ناوسيكا (Nausikaa) ، ابنة ملك الفياكيس ، فى الإنشودة السادسة وتذهب مع وصيفاتها إلى الشاطىء حيث أخذن يلعبن ويمرحن ويضحكن ضحكات مدوية أيقظت أودوسيوس ، فهب مذعوراً واتجه نحو العذارى . فما أن رأينه حتى ولين خائفات إلا ناوسيكا فقـد وقفت تنتظر قدومه ،

فاقترب منها وطلب إليها ثوبا يرتديه وسألها أن تدله على المدينة ، ففعلت ، وأرشدته إلى قصر أبيها ، فتوجه إليه البطل فى الإنشودة السابعة ودخله ووجد به زعماء المدينة وشيوخها يأكلون ويشربون فى وليمة دعاهم إليها الملك ؛ وتقدم أودسيوس بهدوء حتى اقترب من الملك والملكة وحياهما ، فأذنا له بالجلوس وأكرما وفادته ؛ وبعد أن أكل أودوسيوس وارتوى طلب إلى الملك أن يساعده على العودة إلى وطنه ، فوعد الملك بأن يكون له ذلك فى اليوم التالى ؛ ودعاه أن ينام الليلة فى ضيافته ليستريح بعد كل ما احتمل من عناء وتعب . ولما استيقظ بطل ايثاكا ، اصطحبه الملك إلى الشاطىء وأمر بأن تعد له أحسن السفن وأن تختار له نخبة من أصلب الفتيان عوداً وأشدهم مراسا ليصحبوه حتى يعود إلى بلده سالما ، ثم دعا الملك شعبه إلى وليمة أقامها إكراما لضيفه وحفلا رياضيا تخللته الأغانى الرخيمة والرقصات البديعة التى يصفها لنا الشاعر فى الإنشودة الثامنة . وبعد أن فرغ القوم من لهوهم ، سأل الملك ضيفه عن اسمه وطلب إليه أن يحدثه عن بلده ويصف له الأخطار التى تعرض لها . فيخبره أودوسيوس بما يريد ويقص عليه أنباء رحلته منذ أن ترك طرواده بعد سقوطها حتى وصل جزيرة الفياكيس .

ويروى لنا الشاعر فى الأناشيد التالية (٩ — ١٢) الأحداث التى مرت بالبطل والأهوال التى قاساها ، فيحدثنا عن مغامراته فى أرض « أكلة اللوتس[1] » ، ويصف لنا الأخطار التى أحاطت به فى جزيرة الكوكلوپس[2]

---

(١) كانت تنبت فيها زهرة اللوتس التى أكل منها بعض أصحاب أودوسيوس فنسوا كل شىء ورفضوا أن يبحروا مع بقية زملائهم .

(٢) "Kuklopes" وهم جماعة من المردة العتاة يعيشون على سفك الدماء ويشتغلون بالرعى ، وكان زعيمهم يدعى پولوفيموس ، أشبع نهمه من لحم رفاق أودوسيوس وكاد يلتهم البطل نفسه لولا حيلة بارعة أنقذته من براثن الموت .

وجزيره الساحرة كركا[٢] (Circe) ، ثم يصف لنا رحلة أودوسيوس إلى العالم الآخر ، قام بها ليسأل شبح العراف تيرسياس (Teiresias) عن الصعوبات التى ستصادفه والمصائب التى ستلم به قبل عودته ، وبعد أن يعرض هوميروس تفاصيل هذه المغامرات فى صورة قصة يرويها البطل على مسامع الملك وشعبه ، يصور لنا اقلاع السفينة ورحيل أودوسيوس من الجزيرة وعودته إلى وطنه .

بعد ذلك يصف لنا الشاعر مراحل الصراع بين البطل وأعدائه ويشرح لنا كيف تم له النصر بمعاونة اثينا (١٣ — ٢٤) التى تجلت له عند وصوله فى صورة غادة حسناء ونصحته أن يصبر ويتحمل ما يصيبه من مكروه ثم غيرت صورته ودثرته بثياب بالية مهلهلة لكيلا يعرفه أحد ، وأخبرته أن يذهب إلى يومايوس ، راعيه الأمين ، ليقف منه على أخبار أهله وبيته ويقيم عنده حتى تعود إليه الإلاهة بأبنه تليماخوس ، وتوجه أودوسيوس ، وهناك كشف له أبوه عن شخصيته وروى له قصته ، وأخبره أنه تنكر فى هذه الأسمال حتى يستعين على أمره بالكتمان ، وطلب إليه ألا يخبر أحد بعودته وكلفه بالتوجه إلى القصر وانتظاره حتى يلحق به فى صحبة الراعى الأمين ، فانصرف تليماخوس وذهب إلى أمه وأخبرها بأنباء رحلته التى كان قد قام بها ليعرف أخبار أبيه ؛ وأقبل الراعى ومعه أودوسيوس فى صورة الشحاذ الفقير ، وجلس على الأرض فأرسل إليه إبنه شيئا من اللحم والخبز ثم أشار إليه بالدخول فأخذ يسير بين الأمراء ويسألهم أن يتصدقوا

---

(١) حولت أتباع البطل إلى خنازير ، وسحرته هو وفتنته وجعلته ينسى أهله ولا يفكر فى العودة إلى بلده وظل على هذا الحال سنة كاملة حتى أفاق من سكرته واستأذن فى الرحيل . ويروى لنا الشاعر قصصاً أخرى تصور الأحداث التى لقيها البطل مع السكيكونيس (Kikones) والسكيمريوى (Kimmerioi) ، وما عاناه لدى جنيات البحر الساحرة ، وما أحدق به من خطر عند مروره بين خاروبدس (Charubdis) وسكولا (Skulla) ، والأهوال التى تعرض لها فى جزيرة ثيران هليوس ... الخ ... وتفيض كل هذه القصص بلوحات رائعة لمناظر فاتنة أو صور مخيفة أو مواقف مثيرة رسمها الشاعر بأسلوب ممتع رشيق ...

عليه ، فرثى له كثيرون وناولوه قطعا من اللحم ولقمات من الخبز ، وبعد ذلك خرج وجلس عند باب القصر حيث كان من قبل ، فمر به شحاذ ضخم اقترب منه ونهره وأمره بالانصراف حتى لا يثير غضبه ، فرفض أودوسيوس طلبه ولم يكترث لتهديده وقبل تحديه ، واشتبك معه وطرحه على الأرض وانهال عليه بضربات عنيفه اسكتته فهتف العشاق إعجابا بقوة البطل .

عندئذ بدا لپنيلوپا أن تخطر بين العشاق ، فرآها أودوسيوس تتحدث اليهم عن سعادتها الماضية مع زوجها الحبيب وتندب حظها لغيابه الطويل وتحزن لرؤية هؤلاء الأدعياء الذين يعيثون ويعبثون بثروته . وأنبتهم لإقامتهم فى القصر وطلبت اليهم أن يرحلوا عنه فانصرفوا ، ولكن سرعان ماعادوا اليها يحملون هدايا الزواج . هذا يقدم ثوبا جميلا موشى بالذهب ، وذاك يعطيها عقداً من الكهرمان ، وآخر يغريها بأساور وأقراط ، فحملت الوصيفات هذه الهدايا وعادت پنيلوپا إلى غرفتها وتركتهم يلهون ويغنون كعادتهم ، وأقبل الليل وأخذ العشاق يضحكون ويسخرون من أودوسيوس ولكنه رد على أهانتهم بمثلها فودوا أن يضربوه ويطردوه لولا أن منعهم تليماخوس وأمرهم بأن يتركوه لأنه أواه فى قصره ، وطلب اليهم أن يذهبوا من فورهم إلى دورهم فأطاعوه وانصرفوا إلى منازلهم . وهكذا خلا الجو للبطل وولده ، فأمره بإخفاء أسلحة العشاق وقال : « إن سألوك عنها فاخبرهم أنك تحفظها لهم حتى لا يفسدها الغبار أو تؤثر عليها تقلبات الجو » ، ولما انتهيا من حمل الدروع والرماح ، ذهب الأبن إلى فراشه وبقى الأب ليتسامر مع الخدم ، واقبلت پنيلوپا مع وصيفاتها حيث جلس أودوسيوس وأخذت تحدثه عن همومها ومضايقات الأدعياء لها والحيلة [١] التى ابتكرتها لتتخلص

(١) أخبرت الأدعياء بأنها مستعدة للزواج بواحد منهم بعد أن تنتهى من نسج كفن لوالد زوجها ، وعند ما بدأت فى نسجه أخذت تنقض ليلا ما تنسجه نهاراً وظلت على ذلك ثلاثة أعوام حتى وشت بها خادمات القصر .

منهم وقصت عليه كيف وشت بها الخادمات لدى العشاق وفضحوا أمرها فلم يعد لها عذر للمماطلة وأصبحت مضطرة إلى الزواج بواحد منهم ، ثم حدثها أودوسيوس عن نفسه ولفق لها قصة طويلة محزنة . فذكر لها أنه من كريت وأنه عرف زوجها عندما ألقت به الرياح إلى هذه الجزيرة وأكد أنه ما زال حيا يرزق وأنه سيكون إلى جانبها بعد أيام واقسم لها بأغلظ الأيمان أنه واثق مما يقول، وطربت پنيلوپا لسماع هذا الخبر وامرت خادمتها الوفية يوروكليا (Eurukleia) أن تسهر على هذا الضيف وأن تقدم له ثيابا تليق بشخصه الكريم ، فلما خلت اليه الخادمة واستمعت إلى صوته وتأملت صورته ورأت أثر الجراح القديمة التى كانت فى رجليه عرفت أنه سيدها وجرت نحو پنيلوپا لتزف اليها الخبر السعيد ، ولكنه منعها وأمرها بالصمت وأفهمها أن كلمة واحـــدة منها تقضى عليه ، فأكدت له اخلاصها ووعدته بأنها لن تذيع من سره شيئا وتركته يأوى إلى فراشه ولكنه لم ينم وأخذ يفكر فيما عسى أن يأتيه به الغد من أحداث ، وعندئذ تجلت له أثينا فطمأنته واكدت له أنه سينتصر على خصومه ، وفى الصباح توسل البطل إلى زيوس ليرسل اليه آية تدل على أنه يرعاه فاستجاب لندائه. وسرعان ماقصف الرعد واكفهرت السماء وعصف الريح ووقف العراف ثيوكلومينوس (Theoklumenos) وسط العشاق بينما كانوا يجلسون إلى موائد الافطار فى القصر وانذرهم بسوء العاقبة وتنبأ لهم بهلاك عاجل .

وبعدئذ أحضرت پنيلوپا قوس أودوسيوس الهائلة وقدمتها إلى الأدعياء وقالت أيهم يرمى بها سهما سيكون زوجاً لها ، فوافقوا على هذا الشرط وأخذوا يجربون حظهم ولكن عبثا ضاعت محاولاتهم وفشلوا فى رمى السهم ، وطلب الشحاذ أن يسمحوا له بشد الوتر فثاروا ضده ونبذوا

الفكرة ، ولكن پنيلوپا أجابته إلى طلبه رغم احتجاجهم ، وعندئذ تقدم يومايوس ووضع القوس بين يدى سيده ثم أغلق أبواب القصر ، وتناول أودوسيوس القوس وشد الوتر بسهولة ووضع فيها سهما رماه وأصاب الهدف الذى كان الأدعياء قد تراهنوا على إصابته ، فضاق العشاق بهذه النتيجة وامتقع لونهم ، وكأنهم شعروا بأن نهايتهم قد اقتربت ، وسرعان ماخلع أودوسيوس ملابسه ، وكشف عن شخصيته وأخذ يسدد سهامه إلى صدور خصومه الذين لم يستطيعوا مقاومته ، فسقطوا جميعاً وقضوا نحبهم . ولما تخلص منهم أمر بشنق الخادمات الخائنات وتطهير القصر تطهيراً شاملا .

بعد ذلك ينقلنا الشاعر إلى حجرة پنيلوپا التى كانت تغط فى نوم عميق ألقته عليها أثينا حتى لا تشعر بشىء مما يدور حولها ، فأيقظتها وأخبرتها بكل ما حدث ، وأرادت أن تختبر الغريب بنفسها حتى تتأكد أنه زوجها وهنا يرسم لنا هوميروس لوحة مؤثرة تصف لنا تعارف الزوجين ولقاءهما بعد الغياب الطويل وتصور لنا مرارة الفراق ومايحدثه فى القلب من لوعة وحرقه .

ثم ينتقل بنا الشاعر إلى العالم الآخر ليرينا شبح أخيليوس واجاممنون يصفان موتهما ، وأثناء ذلك تقترب منهما أشباح الأدعياء ثم يأخذ أحدهم فى وصف مأساتهم من أولها إلى آخرها ، ولما ينتهى من روايته يعود بنا الشاعر إلى عالم الأحياء وينقلنا إلى منزل لا أرتيس ، فنرى منظراً مؤثراً يصف لقاء الإبن لأبيه ويصور الحب الأبوى والسرور العظيم الذى غمرهما ، وبينما ينعم أودوسيوس بهذه اللحظات الجميلة مع والده ، يبلغه أن أقارب العشاق قد تجمعوا وصمموا على الانتقام ، فيسرع إلى لقائهم وتقف إلى جانبه أثينا ويساعده ابنه وخدمه الأوفياء ، وتحتدم المعركة ويهزم الأعداء ثم يأمر زيوس ابنته أثينا بأن تعقد الصلح بين الفريقين فتنتهى الأوديسا بنشر السلام وبث الطمأنينة فى قلوب أهل ايثاكا أجمعين .

٣ — نقد وتعليق

لم يبالغ افلاطون عندما قال « ان هوميروس هو معلم اليونان » لأن كثيراً من أدبائهم استلهموا من أشعاره جانبا عظيما من انتاجهم ، فالالياذه والأوديسا هما المصدر الذى لا غناء عنه لدراسة الحياة اليونانية بمظاهرها المختلفة ، يرجع إليهما علماء الأديان والآثار والاجتماع واللغة ، يتلونهما مرة بعد أخرى ، ويستمدون منهما كل ما يريدون من معلومات ، ويجمع هؤلاء العلماء على أنهم لا يضيقون بهوميروس مطلقا ، وانهم إذا تركوه فترة أحسوا شوقا عجيباً إلى شعره يجذبهم ويلح عليهم ، فيعودون إليه ويشعرون أن وصفه ما زال ساحراً وان لوحاته ما زالت رائعة .

وكيف لا يكون هوميروس ساحراً رائعاً ؟ ان الالياذه والأوديسا تفيضان بألوان من التنوع : تنوع فى المناظر وتنوع فى الوصف ، تنوع فى العواطف وتنوع فى الأسلوب ، وتتصفان رغم طولهما الشديد ، بتماسك الأجزاء وتسلسل الحوادث ، مما يدل على وحدة الموضوع فى ذهن الشاعر ووضوح الفكرة التى لا يشوبها غموض ولا اضطراب .

ولقد طبع هوميروس أشعاره بطابع من العظمة والفخامة لأنه كان يضع نصب عينيه المثل الأعلى فى كل ما يصف من مناظر وأشخاص ، وكل ما يصور من أحداث ومغامرات وكل ما يروى من قصص وأساطير ، ومع انه كان يرمى إلى بلوغ هذا المثل إلا انه كان لا يبعد عن دنيا الواقع ، فمعاركه الدامية ليست معارك عمالقة أو شياطين ، وأبطاله ليسوا مردة خرافيين ، ولكنهم جنود بواسل وفرسان وشجعان لا يتكافون فى مواقفهم

ولا يتصنعون فى تصرفاتهم ، يشعرون بقوتهم ويعترفون بضعفهم الذى أحاطهم به ليجعلهم فى مستوى الناس أجمعين ، ويرفعهم أحيانا إلى أعلى السمو وينزل بهم أحيانا إلى أسفل سافلين ؛ فأجاممنون « ملك الملوك » و « راعى الشعوب » و « سيد اليونان » يخضع لشهوة الجسد خضوعاً مزريا لا يليق به ولا يتفق مع بطولته ؛ واخيليوس ، بطل هيلاس ، أنانى إلى حد بغيض ، لا يتحرك لموت مئات من مواطنيه لأن اجاممنون اعتدى على كرامته وسلبه حبيبته فيركب رأسه ويبالغ فى إهانته وينسى مصلحة قومه ؛ وأودوسيوس الجبار يخاف العواصف فيبكى بكاء الأطفال ، وعندما تقذف به الأمواج إلى الشاطىء ويشعر بالنجاة يطير فرحاً ويقر بالا ؛ وهكتور الذى كان يبعث الرعب فى نفوس اليونان ، إذا أخذ ابنه بين ذراعيه كان يضمه إلى صدره ويبتسم له ويناجيه بأعذب الألفاظ التى ينطق بها أب رحيم .

ولقد خلع هوميروس على الآلهة أنفسهم صفات البشر ، فمع انهم خالدون أبدا إلا انهم يشبهون الناس جميعاً ، يكثرون من الطعام ويسرفون فى الشراب ، قساة غلاظ القلب لا يحترمون المبادىء الخلقية ولا يتمسكون بالفضائل ، يسود بينهم الخصام وينقسمون إلى أحزاب ومعسكرات ، يتصفون بالمكر والخداع ، منهم القوى الذى يبطش والضعيف الذى يرتجف ، ومنهم الشجاع الباسل والجبان الرعديد ، لا يجلون زيوس ولكن يخافون بأسه ، لأنه إذا أمسك بطرف من سلسلة وأمسكوا بالطرف الآخر منها لشدهم إليه بينما هم لا يستطيعون أن يزحزحوه قيد أنملة » .

لم يصور هوميروس اذن الآلهة كما تصورهم أسلافه ، فلم يؤمن بما كان ينسج حولهم من أساطير أو بما ينسب إليهم من معجزات أو بما يقام لهم من عبادات

لذا خلت أشعاره من النظريات الدينية والأفكار الفلسفية ، ولم تتضمن إلا بعض الخواطر الحزينة التى تعبر عن آلام الآلهة والبشر واستسلامهم أمام قوة القدر ، التى لا مرد لها ولا اعتراض عليها » .

وعلى ذلك لم يحلق هوميروس فى دنيا الخيال بل عاش مع الناس وصور حياتهم وجعل الإنسان محوراً لأشعاره يقوم فيها بالدور الأول ، فيتصل بكل شىء ويتأثر به أو يؤثر فيه . فهو لا يصف الطبيعة مثلا إلا إذا ذكر تأثير ظواهرها على اليونانى الذى يعيش فى كنفها ؛ فالراعى يقضى وقته فى تأمل السماء ونجومها اللامعة[١] ، والفلاح يترقب هبوب ريح الخريف الباردة[٢] ، والمعاز يخاف سحب الشتاء المتراكمة[٣] ، والملاح يلعن البحر الهادى ، والريح الساكنة لأن التجديف أنهكه والتعب أضناه [٤] ، وقاطع الاخشاب يرتجف أمام شجرة البلوط التى اقتلعتها الصاعقة [٥] .

وفى المعارك الدامية التى يخوضها الآلهة مع الأبطال لا ينسى الشاعر الرجل العادى ولا يهمله ، فيشاركه عواطفه ويرثى لضعفه ويثور معه ضد القوى الجبار ، فيبكى فرحا مع أطفال شفى أبوهم من مرض عضال[٦] ، ويتهلل بشرا عندما يعانق الوالد ولده بعد غياب طويل[٧] ، ويشارك الفلاح سروره عندما يرى أغصان الزيتون مزهرة [٨] ، ويبارك البحار الذى نجا

---

(١) الإلياذة : ٨ : ٥٥٩ .
(٢) الإلياذة : ٢١ : ٣٤٦ — ٣٤٧ .
(٣) الإلياذة : ٣ : ٢٧٥ .
(٤) الإلياذة : ٧ : ٦٤ .
(٥) الإلياذة : ١٨ : ٤١٤ — ٤١٧ .
(٦) الأوديسا : ٥ : ٣٩٤ — ٣٩٧ .
(٧) الأوديسا : ١٦ : ١٧ — ١٩ .
(٨) الإلياذة : ١٧ : ٥٣ — ٥٥ .

بعد أن تحطم زورقه[١]، ويتألم لجوع العامل الذى يكد طول النهار [٢]، ويشعر بتعب الملاح الذى انهكه التجديف [٣] ويرثى لحال المرأة التى تكافح لتكسب [٤] قوتها ، ويحزن لحزن الزوجة التى فقدت رجلها فى المعركة ،[٥] ويحزن مع الشيخ الذى مات أبناؤه فى ساحة الوغى [٦] ، ويحسد الأغنياء المترفين الذين يملكون مزارع القمح الواسعة وقطعان الماشية الكبيرة ، ويعجب من أصحاب الثروات الضخمة والضيعات الشاسعة ، وينفر من جشعهم وقسوتهم نحو العامل الفقير والأجير المعدم ، ويشبههم بالحيتان الضخمة التى تبتلع صغار الأسمـــاك والنسور الجارحة التى تنقض على مستضعف الطير [٧]

وكيف لا يهتم هوميروس بتصوير هذه الإحساسات ما دامت الدنيا قد تغيرت ، والاستبداد قد خفت وطأته ، والإقطاع قد اختفت معالمه ، فالفرد العادى يملك مزرعة[٨] (kléros) أو يؤجرها ويستغلها لحسابه الخاص ، والغنى لا يمتاز إلا باتساع ضيعته[٩] (temnos) بعد أن كان يتمتع وحده

---

(١) الأوديسا : ٢٣ : ٢٣٣ — ٢٣٥ .

(٢) الإلياذة : ١٥ : ٦٢٤ — ٦٢٨ .

(٣) الإلياذة : ٧ : ٤ — ٦ .

(٤) الإلياذة : ١١ : ٨٦ — ٨٩ .

(٥) الأوديسا : ١٣ : ٢١ — ٣٤ .

(٦) الإلياذة : ١١ : ٦٧ — ٦٩ .

(٧) الإلياذة : ٨ : ٥٧٩ — ٥٨١ .

(٨) الإلياذة ، ١٥ : ٤٤٨ .

(٩) الإلياذة ، ٦ : ١٩٤ .

بحق الملكية [١] ، والملك الجبار الذى كان يفتخر فى الأليادة بأن الجميع يخافونه ويخضعون لسلطانه صار فى الأوديسا ملكا حكيما يتريث فى تدبير أموره فيتربص لأعدائه ويتحين الفرص للتخلص منهم بدهائه وشجاعته .

ولقد امتازت أشعار هوميروس فوق ذلك بما تضمنته من معان خلقية سامية تتجلى فى الحب الخالص والوفاء العظيم اللذين كانا يسودان فى جو الأسرة [٢] ، وتتجلى فى استنكاره للعبودية واعتبارها أبشع مصيبة تحل بالإنسان لأنها « تفقده نصف رجولته » [٣] ، وتتجلى فى حربة المرأة وسمو منزلتها وأهمية الدور الذى كانت تقوم به .

وكل هذه المعانى لا يعبر عنها إلا شاعر يعيش فى مجتمع راق ، يصف أعمال الناس الذين يراهم ويصور عواطفهم ويتغلغل فى اعماق نفوسهم .

حقا إن هوميروس لم يستطع أن ينكر الماضى البعيد ويتحرر من تقاليده لأن الملوك كانوا مايزالون على قيد الحياة، يحنون إلى القديم، ويفخرون بأجدادهم ، ويطلبون إلى الشعراء تمجيدهم والتغنى ببطولتهم ، ولكنه كشاعر عبقرى موهوب استطاع أن يبتكر ملحمتين تختلفان عن الأناشيد والمقطوعات التى نظمها الشعراء السابقون لأنه أدخل عليهما تبديلا جوهريا

---

(١) إن الفقرات الخاصة بملكية الأراضى فى هوميروس قليلة العدد اختلف فى تفسيرها النقاد لذا لا يجوز أن نستنتج منها قاعدة عامة أو نظاماً ثابتاً . انظر :

Keller : Homeric Society, quoted by Lang (A), Homer & His Age, London, 1906, p. 240.

(٢) أمثلة ذلك كثيرة : حب اندروماخا لهكتور ، حب پنيلوپا لأودوسيوس ، حب پرياموس لزوجته وأبنائه .

(٣) الأوديسا : ١٧ : ٣٢٢ .. يلاحظ أن العبيد عند هوميروس يعاملون معاملة حسنة ولا يقومون إلا بالخدمة فى المنازل أو العمل فى الحقول .

فى الموضوع ، فربط الماضى بالحاضر ، ومجد أسلافه من الأبطال واهتم بمعاصريه ، وصور أحوالهم ، وبذلك كتب لأشعاره الخلود فأصبحت تتلى فى كل زمان ومكان .

ولكن قوة الموضوع وسمو الأفكار لا تكفى لتخليد العمل الأدبى ودليل على ذلك أن جميع الملاحم اليونانية[1] التى نظمت عن حرب طروادة أو عن عودة أودوسيوس أندثرت ورميت بالضعف والركاكة لأنها لا تشبه أشعار هوميروس فى شىء مطلقا .

أما الالياذة والأوديسا، بعكس هذه الملاحم، فتصفان بوضوح الأسلوب الذى امتدحه علماء البلاغة والنقاد القدماء واعتبروه أول سبب لتفوق هوميروس الأدبى، فهو فى رأيهم أعظم كتاب اليونان لأنه أوضحهم أسلوبا ، ويعزى وضوحه إلى عنايته بترتيب الأفكار ونقاء التعبير (katharotes) واختيار أسهل الألفاظ وأدقها (eukrineia) وأكثرها انتشارا وأحسنها وقعا على النفس وأعذبها نغما فى الأذن[2] ، ومع أن الوضوح فى رأى بعض النقاد قد يبعث الملل أو يقلل من أهمية الموضوع أو يؤدى إلى سطحية الفكرة لأنه يفرض على المؤلف اتباع طريقة واحدة ويضطره إلى السير على نسق معين ، إلا أن شاعرنا استطاع ، بفضل عبقريته ، تجنب هذه العيوب بأن نوع فى أسلوبه : فكان مرة يركن إلى الايجاز فى الشرح ويختصر فى التفاصيل (suntemnei) ، يستبعد كل كلمة زائدة ويتخلص من كل صفة غير لازمة

---

(١) انظر الفصل الأول ، ص ١٤

(٢) Eustathius quoted by Berard (V) : Introduction a l'Odyssée, Paris. 1933. T. II, p. 803.

فيصف فى بيتين اثنين[١] استيقاظ أودوسيوس على شاطىء جزيرة الفياكيس حيث كانت تلهو ناوسيكا مع وصيفاتها ، ويصور سقوط طروادة تصويرا رائعا فى أربعة سطور [٢] ، ومرة يسهب فى الوصف ويبلغ حد الكمال لأنه فى ، رأى يوستاثيوس ، لايترك كبيرة ولاصغيرة إلاذكرها ليطلع السامع على كل شيء. فاذا سرد قصة حلل وقائعها ، وإذا تعرض لأسطورة شرح أجزاءها «وكان هوميروس بارعا فى تفصيل أى موضوع بأسلوب متنوع يجمع بين البساطة والفخامة وبين الدقة والسمو وبين القوه والسهولة[٣]» ، وكان لايهتم بالزخرف اللغوى ولا يميل إلى المحسنات اللفظية ، بل كان يعتمد فى تشويق سامعيه على روعة الحوادث التى يعرضها ، والأحاديث التى يرويها ، والخطب الذى يتخذ منها وسيلة للاقناع وإثارة الهمم ؛ فيستخدمها القواد لحث الجنود فى ساحة القتال[٤] ويلجأ اليها الزعماء لمناقشة المسائل السياسية [٥] ويستعين بها الرسل فى اداء مهمتهم ،وكانت تتميز الخطب عنده بأنها تعبر تعبيرا صادقا عن نفسية الخطيب وتكشف عن طويته ، تستمد قوتها من قوة شخصيته وصـــدق مشاعره ، وتكتسب حيويتها من عمـــق افكاره وتأجج عواطفه ، وكان هوميروس يحب التكرار ويعتمد عليه فى الاستيلاء على انتباه ذلك الجمهور الساذج الذى كان يستحيل عليه تتبع الشاعر واستيعاب ماينشده إذا لم يروح عنه ، ولاشك أنه كان يفهم نفسية سامعيه ويعرف أنهم

---

(١) الأوديسا : ٦ : ١١٦ — ١١٧ .

(٢) الأوديسا : ٨ : ٥١٧ — ٥٢٠ .

(٣) Berard (V) : op. cit., p. 307; cf. Quintilianus, Institutio Oratoria, Book X. I. 46—51.

(٤) الإلياذة : ٢ : ٢١١ — ٢٩٣ ؛ ٩ : ٦٠٦ — ٦٦٨ .

(٥) الإلياذة : ١ : ٢٠٧ — ٣٠٧ .

(٦) الإلياذة : ٩ ٢٢٥ — ٤٣١ ؛ ٤٣٢ — ٦٠٥ .

لا يحبون العجلة لأن لديهم من الوقت ما يتسع لسماع مئات من الأبيات لذا لم يتردد فى تكرار سطور وعبارات بل وفقرات بأكملها ، ولقد بلغ مجموع الأبيات المكررة من الإلياذة والأوديسا ثلث طولها (١) ، ومع ذلك فاننا لم نسمع عن ناقد قديم أو حديث ضاق بهذا التكرار ، بل لقد اعتبره أرسطو ظاهرة طبيعيه لم تفقد الأسلوب شيئا من جماله ولم تبعث الملل لأن الشاعر كان بارعا فى تهيئة النفوس وتمهيد الجو لسماع كل ما يردد من جديد . فعندما يصف استعداد باريس لحمل أسلحته وخوض المعركة (٢) لا يتردد فى استخدام نفس العبارات لتصوير هكتور وهو يتأهب للقتال(٣) . ولكن التكرار لا يمنعنا من إدراك الفرق العظيم بين روح الفقرتين لأن الشاعر سردهما بطريقة بارعة تشعرنا بأن باريس يخالف طبيعته الناعمة ويستعد للنزال غير راغب فيه لأنه لم يخلق له ، بعكس هكتور الذى يدخل المعركة ليدافع عن طرواده ويحمى شعبها .

ولقد اكثر هوميروس ايضا من استخدام التشبيهات (٤) ، فاستمدها من الطبيعة التى تحيط به ومن البيئة التى يعيش فيها . فالسيل الجارف والعاصفة الشديدة والبرق الخاطف والريح العاتية والأسد المرعب والثور الضخم وجموع النحل توحى إليه كلها بمقارنات بديعة وتشبيهات حيه . فهكتور يقذف بنفسه الى المعركه كعاصفة قوية تهب على السحب فتعبث بها وتفرق شملها وتدفعها دفعا عنيفا إلى أبعد مكان ، واودوسيوس يهاجم

---

(١) تتكون الملحمتان من ٢٧٨٥٣ منها ٩٢٥٣ بيتاً مكرراً .

(٢) الإلياذة ٦ : ٥٠٦ — ٥١١ .

(٣) الإلياذة ٨ : ٢٦٣ — ٢٦٨ .

(٤) خاصة فى الإلياذة التى تحتوى على ١٨٠ بيتا بينما لا تحتوى الأوديسا إلا على أربعين .

الأدعياء ويخيفهم كخنزير برى يروع الصيادين الذين يطاردونه ويخيف الكلاب التى تطارده ، واچاكس العنيد يشبة الحمار الذى يعيث فساداً فى حقل من القمح فيكون نصيبه الضرب المبرح .

ولكن الالياذه والاوديسا تمتازان أولا وقبل كل شىء بدقة الوصف وبراعة التصوير ، فما من نشيد فيهما إلا وقد احتوى على مقطوعات تصف الطبيعة أو لوحات فنية تصور مناظرها أو أوصاف مفصله لبعض الادوات الحربية ، برع الشاعر فى رسمها وتحليلها تحليلا دقيقا حتى ان بعضها صار مضرب الأمثال ، فلا يتكلم ناقد عن دقة الوصف البالغة إلا وذكر « درع اخيليوس »[1] الذى صنعة إله الحدادة ، والآلهه طبعا لاتصنع دروعا مثل تلك التى يصنعها الناس لذا ترك الشاعر لخياله العنان ليصف ذلك الدرع ، فقال :

« صنع هيفايستوس درعا كبيراً وزينه فى كل أجزائه وأحاطه بإطار ثلاثى براق ، ومنطقة فضيه ناصعة البياض ، وكان للدرع خمسة أربطه وعليه من الرسوم ما يشهد بمهارة صانعة . صور عليه الأرض والبحر والسماء والكواكب التى تزينها ، وبينها شمس لا تفتر وقمر شاحب الوجه . وصور عليه مدينتين جميلتين اقيمت فى إحداهما الولائم والأفراح ، نرى سكانها يحملون العرائس من بيوتهن ويطوفون بهن فى شوارع المدينة ، بينما كانت تتردد فى الفضاء أناشيد الزفاف وانغام الموسيقى ، ووقفت النسوه معجبات ، واحتشد الناس فى سوق المدينة .

اما المدينة الأخرى فقد عسكر حولها جيشان ، اختلف جنودها

---

(١) أوردنا تلخيصاً لوصف هذا الدرع لأن الشاعر صور عليه كثيراً من مظاهر الحياة اليونانية بعد أن ضمنها بعض خصائص الحياة المصرية والآشورية والفينيقية ، انظر فى هذا الصدد

Murray (A) : History of Greek Sculpture, ch. III, p. 44, qouted by Jebb, op. cit., p. 67.

فى الرأى بعضهم ينادى بتدمير المدينة عن آخرها ويرى الأخرون الاكتفاء بغزوها والاستيلاء على مابها ، أما السكان المحاصرون فرفضوا التسليم واخذوا يتسلحون سراً ، بينما وقف الشيوخ والاطفال والنساء على اسوار المدينه يحرسونها . ثم خرج المحاربون يتقدمهم آريس واثينا ، كلاهما جميل طويل القامة ، أرتدى ثيابه المذهبة وحمل اسلحته اللامعه . وعندماً بلغوا المكان المعد لكمين عند مجرى نهر ترتوى منه الماشيه ، جلسوا هناك يحوطهم هذا البرنز البراق ، وعلى بعد منهم وقف كشافان للجيش يراقبان مجيء الأبقار والثيران ذات القرون الملتويه . وإذا بقطيع من الماشية يسير وراءه راعيان يعزفان على المزمار ، وبينما يسريان عن انفسهما هجم عليهما العدو الذى كان يرقبهما وأخذ يحصد قطعان البقر ويجز أصواف الخراف ويذبح الراعيين ايضا . وعندما سمع أهل المدينة المحاصرة صخب القطيع نهضوا وامتطوا جيادهم الرائعه واسرعوا نحو ذلك المكان . وهناك على ضفاف النهر نشبت معركة حامية استعمل فيها الفريقان حرابا برنزيه .

وصور عليه مزرعة جميلة خصبة تجود بثلاث غلات ، امتلأت بمحاريث تدفعها العمال ذهابا وإيابا ، وكلما انتهى بهم الطواف إلى حافة المزرعة قدمت لهم كئوس من الخمر لها حلاوة الشهد وظلوا فى غدو ورواح يريدون الأنتهاء من تخطيط هذا الحقل الخصيب الذى بدا ، بعد حرثه ، اسود قاتما مع أنه مصنوع من الذهب .

وصور عليه ضيعة مترامية الاطراف حيث يحصد الفلاحون القمح بمنجل حاد فتسقط الحزم على الأرض سراعا على خطوط المحراث ويقوم بربطها جماعة آخرون ، ويجرى خلفهم صبية يجمعون مايقع من القمح ويحملونه ويعطونه لهم ، وقد وقف بينهم « الملك » هادئا يمسك بصولجانه

والبشرو الحبور يملآن قلبه . وعلى مقربة منه أخذ الخدم يعدون الموائد تحت شجرة بلوط ، فذبحوا ثورا سميناً وانهمكوا فى تهيئته ، بينما راحت النساء تنثر دقيق الشعير الابيض وتعد عشاء الحاصدين .

«وصور عليه كذلك بستاناً مليئا بالكروم الذهبية الناضرة تحملها جفان تتكىء على مسامير من الفضة ، وأحاط البستان بخندق فى لون الفيروز وسور من القصدير ، وشق طريقاً يؤدى إليه ، يسير فيه هؤلاء الذين يقطفون الأعناب ، وترى العذارى والشباب يمرحون هناك ويحملون فاكهة حلوة فى سلال مجدولة وبينهم صبى يعزف على الربابة أعذب الأنغام ويغنى بصوته العذب نشيد « لينوس ». (١)

« وصور عليه قطيعا من الأبقار ذات القرون المستقيمة مصنوعة من الذهب والقصدير ، تسمع خوارها وهى تخرج من حظائرها إلى المرعى بجوار نهر جار يتدفق بالقرب من البوص الغض ، وقد سار وراء القطيع أربعة من الرعاة يتبعهم تسعة من الكلاب بيض الأقدام ، وقد هجم على القطيع سبعان مخيفان أمسكا بثور ضخم وسحباه وهو يخور بصوت عال ، وتبعتهما الكلاب وجماعة من الفلاحين ، ولكنهما مزقا جسد الثور وأخذا يلتهمان احشاءه فى نهم ويلعقان دماءه بشراهة ، بينما حاول الرعاة دون جدوى إثارة الكلاب لكى تجرى نحو السبعين لتعضهما ، لكن الكلاب جرت نحوهما ثم ولت هاربة ، وصور عليه مرعى فى واد جميل ترعى فيه خراف بيضاء بجوار الحظائر والأكواخ والأخصاص . وصور عليه حفلا راقصا مثل الحفل الذى أقامه « دايدالوس » من أجل

---

(١) نشيد حزين كان يتغنى به اليونان أيام الحصاد تمجيداً لذكرى لينوس الذى مات فى ريعان الشباب .

« اريادنا » ذات الغدائر الجميلة . وكان يرقص فيها شبان وعذارى ، أمسك بعضهم بعضا ، وكانت ترتدى العذارى ثيابا من الكتان الجميل ، بينما لبس الفتيان ثيابا من نسيج ذى بريق زيتى خافت ، وكانت الفتيات تضع فوق رؤسهن أكاليل رائعة ، أما الرجال فتدلت على جوانبهم السيوف الذهبية ذات الشرائط الفضية ، وكانوا أحيانا يدورون على أطراف أقدامهم ، وأحيانا يتقدمون ، كل نحو الآخر ، فى صفوف منظمة ، وكان هناك حشد عظيم يحيط بهؤلاء الراقصين الذين يتوسطهم منشد يعزف على القيثارة واثنان يدوران بين الجميع يوفقان بين توقيع الرقص وأنغام المنشد »

ولكن هوميروس لم يبرع فى تصوير الدروع وحدها بل أظهر مقدرة فائقة فى وصف كل ما رأى وسمع . لقد كان قوى الملاحظة محبا للإستطلاع ، فوصف الجروح وآلامها وطريقة معالجتها ، وتكلم عن المعارك الحربية وقيادة الجيوش(١) وصور الحدائق والبساتين ، تحدث عن كل ذلك (٢) حديث خبير ماهر ووصفه وصف عالم دقيق حتى قال بعض النقاد (٣) إنه كان جراحا وقال آخرون إنه كان قائداً وقال غيرهم إنه كان فنانا أو عالما ولكنه كان فى الواقع جراحاً وقائداً وفناناً وعالما لأنه كان شاعراً « ينطق عن موهبة قدسية أتته من لدن الآلهة » (٤)

---

(١) كسينفون ، المأدبة : ٤ ، ٦ : حيث يقول «يجب على كل فرد أن يرجع إلى هوميروس ليتعلم منه كيف تكون الزعامة السياسية والقيادة الحربية والبطولة فى القتال ...».

(٢) انظر الإلياذة : ١١ : ٦٣٩ وما بعده ؛ ١٢ : ٢٠٠ — ٢٠٧ ؛ ٢٤ : ٨٠ — ٨٤ ؛ الأوديسا : ١٥ : ٢٢٥ وما بعده .

(٣) أفلاطون : ايون أو عن الإلياذة : ترجمة صقر خفاجه وسهير القلماوى : ١٥٣٥ ، ٥٣٧ هـ وما بعده .

(٤) أفلاطون : ايون . ١٥٣٥ .